

«فأجابه يسوع: الحق الحق أقول لك: ما من أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله إلا إذا وُلد من عل. قال له نيقوديموس: كيف يُمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ كبير؟ أيسطيع أن يعود إلى بطن أمه ويولد؟ أجاب يسوع: الحق الحق أقول لك: ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلا إذا وُلد من الماء والروح. فمولود الجسد يكون جسدًا ومولود الروح يكون روحًا. لا تعجب من قلبي لك: يجب عليكم أن تولدوا من عل».

(يوحنا 3: 3-6)

«وقال الجالس على العرش: ها أنذا أجعل كل شيء جديدًا».

(رؤيا يوحنا 21: 5)

ذكري مولد

سنة بعد سنة، يمرّ العمر، وتأتي الذكرى تلو الذكرى، والإنسان من معترك إلى آخر. هذه الذكرى، ذكرى مولد الإنسان، ذكرى دخوله عالم الحسّ، عالم الزمان والمكان، ليست تكرارًا للمناسبة فحسب، بل إنها موعد لوقفه تأمل.

الذكرى موعد ووعد¹. هذا الموعد ليس لتعداد واجترار الوعود التي سبقت بل لتقييمها. إنه موعد مع اللحظة الجديدة لوعد جديد ينمو وينضج في كل مرة تمر فيها هذه الذكرى. هذه اللحظة الجديدة، حين نقف في حناياها للتذكّر هي أيضًا للتأمل، هي للجديد من القديم خطوة متوّبة نحو الآتيات، راجية ولادات من فوق غير مُقيّدة بقوانين وشرائع المكان والزمان. إنها لحظة جديدة ويُمكن أن تكون مُتجدّدة في كل شيء؛ إنها لحظة راجية وتواقّة. إنما هي في الزمان والمكان ولكن أنشودتها، أملها وسعيها هو الارتقاء إلى ما وراء هذه الأبعاد والحدود، إلى ما وراء المحدود.

ذكرى مولد الإنسان، هي في كل مرة، كما في كلّ لحظة، باب مفتوح للآتيات. فإذا انتبه هذا الإنسان وكان جاهزًا لاستقبال هذه النعم فإنه يُضحى خليقة جديدة، ويؤول مواعده مع العمر، كما هو موعد العطشان إلى مجاري المياه، إلى الحياة الأبدية. إن حياتنا الأرضية هي بمثابة تحسّس وتذوّق للحياة الخلاصية التي نحن على وعد معها؛ هي هذا الشوق إلى ما قد أسبغّه الله علينا عند الخلق حينما نفخ من روحه فينا فوهبنا وداً مديداً لا ينضب.

نحن في هذا العالم ولكنه مُنعم علينا بالأنا نكون من هذا العالم. فكلّ ذكرى، لحظة أو مناسبة تأتي هي من لدن الله ويجب أن تؤول إليه. إنها تأتي إلينا كي تُغيّرنا، ففي التغيير تجديد ودفنٌ للقديم، يمكن أن يكون قيامة وإنطلاق الوثبات. هذا التغيير يحصل للإنسان الذي يرنو إلى خلاصه فقط لأنه حاضرٌ ومنتظر. في تلك اللحظة التي يقدّم فيها ذاته للرب ينجلي فيها فيصبح صلاة متواصلة وعلى وصال مع الله. نحن من لدن الله وإليه مسارنا، وبتطهير ذواتنا نرى، نتحسّس ونتذوّق تجلّيات الله.

¹.المترولوجيت جورج (خضر).

كل ذكرى مولد تُطلّ هي إحدى المناسبات لانسكاب نِعَم الله. إن تجلّيات وانسكاب نِعَم الله ليست محدودة في الذكرى (في المكان والزمان)، بل هي في فيضٍ، في حركةٍ وعمل منذ الأزل وباقية في ديمومتها إلى الأبد. هذه المناسبة هي للإنسان كي يقتنص ويغرف منها. لذلك، هي ذكرى سعيدة، هي عيد. والعيد ليس بتاريخ يعيد نفسه إنما هو فرصة لعودة الإنسان إلى خالقه؛ هو توبة وإياب إلى المصدر، إلى مصدر الخلق.

يوم ذكرى مولدنا هو يوم جديد، هو عيد سعيد، هو موعد مع الوعد. إنه فرصة للإنسان كي يمتدّ في العلو فيلتقي بالذي نزل إليه وحلّ فيه. إنه ليس مجرد استعراض لذكريات من الماضي، بل هو نظرة ثاقبة إلى جوهر الحياة وغايتها. هو ولوج إلى حضن الأب من جديد وهرع إلى رحمته. إنه موعد مع الله، فلم لا تكون كل أيامنا، لحظتنا، مناسباتنا وذكرياتنا أعياد ميلاد ووقفات للتذكّر والتأمل؟